إشكاليّة الهويّة - الحاجة

أحمد بوزفور

كفى... لا ضرورة للكلام.. الخداع.. لنعترف، نحن مهزومون تماماً. وهزيمتنا راجعة الى أننا نعتمد في كل شيء على عدونا.. اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً. نستهلك بشره شَبِق كل ما يُقدّم الينا، ونتعرى بتهوّر محدث النعمة النزق عن كل ما غطّته أفياء الغرب في انتظار الغسق المقترب.

والهزيمة العسكرية ختم ــ آخر ــ على باقي الهزائم في باقي الميادين. ليس لماذا انهزمنا هو السؤال. بل السؤال هو لماذا لم...؟في ٦٧ هزّتنا الكارثة، ونشأ ــ نشب السؤال الجدلي: من نحن وماذا نريد؟

إشكالية الهوية ــ الحاجة سؤال لم يطرح قط بالحدة التي طُرح بها بعيد ٦٧... فصادر المحافظون السؤال المزدوج ومَثْلَنوه، وسقط كثير من التقدميين في الفخّ المحافظ فحسبوا الحاجة الهوية والهوية الماضي، وذهبوا يبحثون عن الجماهير في رفوف الكتب لا في الشوارع والقرى. وها هي الهزائم تترى. وها هم المحافظون كالعهد بهم يصالحون. والتقدميون يتراجعون ويضعفون تحت ضغط الاشكالية غير المحلولة.

كلا.. الاشكالية مطروحة بعد... وانا واحد من هذه الجماهير تحت المنصة احمل كل جهلها وخشونتها وأميّتها واصرارها وطموحها واستغرابها واطلب مثلها ومعها ان اعطى الكلمة ساعة من نهار... هذه الجماهير ظلت دائماً تعرف من هي وتعرف ماذا تريد، وظلت معرفتها تقمع دائماً بضرورات العصر كأنما من ضرورات العصر ان لا تدخل الجماهير العصر!

الآن وقد حزّ السيف في العظم لا مهرب: الديمقراطية، وفي التنظيمات التقدمية وبين مناضليها أولا، فليس ينبغي ــ ولا يمكن ــ أن يسقي الناس عطشان. وكمواطن من هذه الامة، لا اتكلم باسم واحد ولا أدّعي التعبير عن أحد، اطالب باعطاء الكلمة للجماهير المنظمة الحرة لتتولى امرها، فإما حققت هويتها ــ حاجتها ككل الامم الحرة في هذا العصر، وامّا انقرضت بصدق ودون رشوة للتاريخ كأي شجاع.

كيف أرى الثقافة العربية الجديدة؟... والدور الذي ينبغي ان تضطلع به.. الخ... الخ.. سئمت هذا العلك الممضوغ بعد كل هزيمة... الهزيمة اصبحت معياراً نقيس به ثقافتنا، ونعود كل مرة الى الصفر، ونحسب جديداً الحديث عن الجديد، وليس الا استبدال راكب براكب او كتف بكتف مركوب.

اشكالية الهوية ــ الحاجة هي السؤال. ومثلما ينبغي في السياسة والاقتصاد... الخ.. الرجوع الى الجماهير كذلك في الثقافة.

واحسب اننا لو رجعنا في العلوم الطبيعية الى البيئة العربية ــ تلاميذ لها ــ وصفاً وتوظيفاً، وفي العلوم الانسانية الى الجماعات العربية ــ تلاميذها وبمفاهيمها الاجرائية ودون قسر أو اخضاع ــ وصفاً وتوظيفاً... لأمكن ان نقترب ــ في المجال الثقافي ــ من الجواب على السؤال.. اما الابداع ــ واتحدث عن الادب خاصة ــ فلا اجد مبرراً شخصياً للانتقاد... ولم تعطني الاعمال الادبية العربية المتميزة حتى منذ قبل ٦٧ اي شعور بالتفاؤل والاستنامة او اي إحالة محكومة بالعقد على مجتمعات وابداعات اجنبية اخرى، بل كانت دائماً الزاوية الصغيرة والوحيدة التي اتنفس فيها الصدق والحقيقة والنبوة... وحسبها ذلك ما دامت تتوجه اليّ انا أولا كمواطن من هذه الأمة.. كما اظنها تفعل...

المغرب